

## رجل من هجر

و هجر القديمة . بيوتاتها الصغيرة المتلاصقة , و بأزقتها المتعرجة ....هي هجر اليوم بأهلها الطيبون . و كأن الزمن الطويل لم يعمل عمله بعد في داخلهم .

منذ سنواته الأولى تطلع إلى الأعلى , حدق في ذلك الفضاء المخيف و تسائل ( إنها نجوم لا تحصى , في مجرات بعيدة , لا أحد يستطيع التنبؤ بأعدادها ...و تقديرها بالقياس غير يسير ..إلا إنها أمرا فيه تدبر و تفكير ) ... و ظل الهجري يسأل أكثر مما يجيب . و يتفكر في نظام الكون أكثر مما يتعجب . و كأن هذا العقل يرفض الاستسلام أو التسليم بالمستحيل .

و حتى اليوم ...لا تجالس أبو علي الهجري إلا و تجده عقلا معلقا في الفضاء , و قلبا مغروسا في ارض هجر .

\* \* \*

( ب )

في ذلك اليوم البعيد . بدا سعيدا و مرتبكا . داخلته فرحة الأطفال بالأثواب الجديدة و خوفهم من المجهول الآتي . استيقظ مبكرا , أيقظ والدته ..قبل صباح الديكة . ألبسته أمه ثوبه الجديد , ووضعت على رأسه طاقية بيضاء , و انتظر والده بذلك الشوق المتكسر في داخله .

أمسك والده بيده الصغيرة , سارا صامتين أول الأمر في أزقة حي الرفعة الضيقة . ثم بعد ذلك بقليل بدأ في طرح أسئلته العديدة على والده . وصلا إلى مجلس الحاج طاهر . تطلع الهجري بشوق إلى الأولاد الصغار من بعيد , سمعهم يرددون آيات القرآن الكريم ...فخفق قلبه بشدة . أما حينما دخلا للمجلس وسلم والده على الحاج طاهر , الذي استقبلهما بجفاء فقد أحس الصغير بالخطر اكبر الآن . و ازدادت ضربات قلبه :

- هذا ولدي يا حاج طاهر .. جاء لقراءة القرآن

تبسم الحاج طاهر . فبان أسنانه البيضاء المتلاصقة . وأشار بيديه مرحبا بهما :

- حياكم ا □ . . . تفضلا .

اصبح الهجري و سطا المجلس تقريبا . فختلس نظرة خاطفة بحياء . شاهد الأولاد الصغار يقرؤون بفرح , القرآن الكريم في حجرهم , و الرؤوس الصغيرة تهتز مع القراءة من آن لآخر . دقق النظر في الحاج طاهر , ارتاح لمظهره , لحيته البيضاء الطويلة , أبطأت من دقات قلبه المتلاحقة .

انفتل برفق من يد والده التي ظل ممسكا بها منذ خروجهما من المنزل . و جلس بين الصغار . . . وبدأ يردد الآيات التي يسمعا .

ومنذ التحدي الأول لخوفه عند الذهاب للمطوع لتعلم القرآن الكريم , بقي حتى اليوم يتحدى الخوف . يقتحم المجهول على خيول سبق لا تعترف بالهزيمة .

و التحدي الأول الذي واجهه صغيرا في ذلك اليوم . هو نفسه الذي قاده شابا إلى مدرسة التاجر في البحرين لتعلم الحساب و العلوم .

يتذكر ذلك بوضوح الآن . يوما من أيام البحرين الرطبة . في محل والده قرب باب البحرين . حيث انظم صديقهم البحريني محمد الماجد إلى حديث بينه وبين والده وأخيه . تحدثوا عن تجارتهم المتواضعة في ذلك اليوم , و عن رطوبة البحرين , و تحدثوا عن الحرب و متى تنتهي

قال والده و هو يحرك قلما بين يديه :

- و ا □ الحرب أكلت الأخضر و اليابس . . . ولا ادري من سينتصر هتلر وجماعته وإلا بريطانيا و جماعتها .

قال أخوه محمود وهو يملح طاقات القماش في مكانها :

- المهم أن تنتهي الحرب ..حتى نستطيع أن نعمل في تجارتنا بحرية اكبر .

ردد والدهما و هو يمسح على لحيته و ينظر خارج المحل :

- نعم ... نعم ..

أضاف محمد الماجد ضاحكا و كأنه يرغب في تغيير مجرى الحديث :

- تنتهي الحرب و ندرس ونتعلم أيضا ..

حينها قفز الهجري من مكانه قائلا :

- و هل يمكن ذلك ؟ و كيف ؟

رد محمد الماجد و هو يشير برأسه إلى الجهة الأخرى :

- نعم ...ألم تسمع بافتتاح مدرسة التاجر الليلية و التي تدرس الحساب و الإنجليزي .

في تلك الليلة لم ينم الهجري . تقلقه أحلامه . ظل طوال الليل متقلبا في فراشه . سأل نفسه أسئلة عديدة . كما هي عادته ...إلا انه لم يجيب عليها . هل يمكن لي التسجيل في تلك المدرسة ؟ هل أتمكن من دفع تكاليفها ؟ و ماذا إذا لم يسعفني و قتي على الدرس و العمل معا ؟ ثم ماذا عن أسرتي الصغيرة ...هل سيبقى لها وقتا بعد ذلك ؟ .

في مساء اليوم التالي , وقف أمام بوابة مدرسة التاجر ...اندهش من ذلك الحشد الصغير أمامها . حاول الدخول فلم يستطع . عاود المجيء للمدرسة في مساء اليوم التالي , ولم يتمكن من الدخول أيضا . ثارت في داخله حسرة كبيرة ...ارتفعت عاليا , ثم تكسرت في حناياه . في مساء اليوم الثالث , لم يسلم بالهزيمة , بل تمكن من الدخول و مقابلة مديرها .

يتذكر كل ذلك اليوم دون زهو أو خيلاء . ينقل لك كل التفاصيل الدقيقة . تنقله من مدرسة لأخرى . يحكي قصته مع التعليم العالي , حصوله على دبلوم الصحافة من كلية الصحافة المصرية . كتاباته في

بعض الصحف في تلك الأيام الصعبة . ثم يصمت يتطلع إليك . فلا تملك إلا أن تسلم له بذاكرته القوية , و بسحر حديثه .

ولكن و بعد كل مغامرت تلك السنين الطويلة , تشعر بأنه مازال يخاف على نخلاته السبع , و يخاف من جموح خيوله الثلاثة المتبقية , بعدما سقط رابعهم قبل بضع سنوات قليلة . و لا غرابة في ذلك , لانه ككل رجال هجر الطيبين الذين يرددون ( أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا و أعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ) .

\* \* \*

( ج )

يجلس أبو علي الهجري مسندا ظهره النحيل على أحد المساند . في وسط رواق المجلس . ثياباه بيضاء و بسيطة . و غترته مستقرة على رأسه بخشوع . اخوته و أصدقاءه يحيطون به . يرفع رأسه , يتطلع للسماء الزرقاء , و صدره يحلم بالأمطار و الانعتاق . ثم التفت للحاضرين قائلا بحزن :

- تعلمون يا جماعة إن السيد محمد قد توفي رحمة الله عليه . . . .

أجاب أحد أعمامه :

نعم توفي قاضينا رحمة الله عليه .

عاود أبو علي الهجري و هو يضع بيالة الشاي على البساط :

- لذلك نحن بحاجة إلى تزكية رجل منا لكي يكون قاضيا لنا .

التفت إليه أخوه الحاج محمود و كأنه عرف مغزى حديثه :

- و في هذه الحالة من تقترح ..؟

هز ابو علي الهجري رأسه بهدوء وقد بدا عازما على امر ما :

\_ نرشح الشيخ باقر و نزكيه ...لهذا المنصب .

تحرك الشيخ باقر في مجلسه لاكثر من مرة و كأنه فوجئ بالأمر . و أجاب بحذر :

- أنا لا ارغب في تولي القضاء ...ابحثوا عن غيري .

أجاب الهجري و بلهجة حازمة :

- بل لايد من ذلك يا شيخ أنت أهل لها .

رد الشيخ معذرا بعد أن رفع يده للأعلى :

- ولكن الناس لا يوافقون على رأيك يا أبا علي . وقد لا يريدونني .

ردد بعض الحاضرين في المجلس :

- نعم . لايد من ذلك يا شيخ , دون غيرك لا نرغب .

ثم أضاف الهجري بعد أن عدل من وضع غترته على رأسه :

- نحن لم نطلبك للناس بل طلبناك لنا نحن أبناء الهجري .

قال الشيخ باقر و كأنه استسلم لرأي الحاضرين في المجلس :

- جرب يا أبا علي و سوف ترى صحة قلبي .

لكن أبو علي لم ينتظر ليوم غد . بل قام من مكانه و دخل المجلس , و بعد قليل رجع بورقة و قلم . و شرع يكتب برقية للحاكم يزكي فيها الشيخ باقر لتولي القضاء . في اليوم التالي كانت البرقية قد

أرسلت .

لم تمر سوى أيام قليلة . حتى كانت المفاجأة . و جاءت برقية جوابية من مكتب الحاكم توافق على تنصيب الشيخ لتولي القضاء .

مجلسه الليلي الذي ينفذ قبل منتصف الليل بوقت طويل , أدار منه الهجري شئون هجر الاجتماعية . من هذا المجلس بحي الرفعة انطلقت البدايات الأولى لتنصيب مشائخ القضاء , و تعيين عمداء أحياء هجر , و فض المنازعات ...طوال نصف قرن من الزمن تقريبا .

\*

\*

\*

( د )

أبو علي الهجري .... هكذا كان محبيه و أصدقاءه و أقرباءه يسمونه . هكذا كانوا يدعونه , دون ألقاب أو أوصاف تسبق اسمه . لأنهم يدركون مغزى اسمه الكبير . هكذا عاشوا في مجتمع لا يحفل بالألقاب الكبيرة التي تسبق الأسماء , لكنهم يدركون دلالاتها . يدركون انه رجل من هجر داهمه الجوع و الفقر و المرض بل و الثرة والجاه أيضا , لكنه بقي كما كان دوما بسيطا في خارطة هجر و تاريخها .

لا أحد يدري على وجه التحديد كيف اجتمعت صفات الزهد و الصلابة و العزيمة والصبر ...عند رجل واحد . فلا انهم موقنين أنها تجسدت في شخصه .

قبل قليل جلس وسط أبناءه و أحفاده , حدثهم بلطف . ثم شرد بذهنه إلى أيام الماضي البعيد ( عملت كثيرا . لم اهدأ يوما واحدا منذ صغري . فلماذا يتكاسل بعض أولادنا اليوم !!!

عملت في بيع و شراء الأقمشة في محل القيصرية . سافرت مع أخي محمود للبحرين لخياطة البشوت و بيعها هناك . أين أخي محمود اليوم لكي يخفف عني حزني وألمي . كنا نفهم بعضنا بعضا حتى دون أن نتكلم . رحمك الله يا أخ . بعد رجوعي من البحرين انتقلت للبيع و الشراء في الأغذية في دكاني بشارع الخباز . ثم انتقلت محلتي للشارع العام . و محلات أخرى في الخبر و الدمام . تعاملت مع كبرى

الشركات الأجنبية . ولو عاد لي شبابي مرة ثانية , فلن أنفقه الا كما أنفقته في العمل و العلم . (

هكذا كان أبو علي الهجري يحدث نفسه . يتوقف . يداعب حفيده الصغير المتعلق به . تلوح له فجأة نخلاته السبع و أحصنته الثلاثة ...فتقفز من عينيه دمه عابرة , لا مبرر لها . سرعان ما يمسحها بيده و يبتسم .

يعاوده هذه الأيام الشroud دونما سبب . في طريقه إلى محلاته التجارية , تتحرك الأشياء سريعة من خلال نافذة السيارة , لكنه لا يراها . يغرق في تذكّر أيام طفولته و لهوها البريء مع أخيه ( كم كان لي من العمر حين أسست مع أخي محمود جمعية لتعليم الخطابة ؟

ثمان سنوات أو عشر ؟ لا أتذكر على وجه الدقة . و لكنني أتذكر إننا كنا خمسة . أسسنا تلك الجمعية . و حضر دروسنا العديد من الأولاد الصغار في ذلك اليوم . كان ذلك في بيت جدي , في غرفة صغيرة داخل البستان . نطفناها و فرشناها بالحصر و البسط القطنية . و صنعنا من كرسي السراج بعد إصلاحه منبرا للخطابة . كان أخي محمود يخطب فينا ... و لكننا كنا نساهم جميعا في إعدادها و مصروفاتها . أتذكر ذلك جيدا في ظهريات أيام الصيف الحارة . ولكن لهو الصغار في هذه الأيام يختلف عن لهونا . يخيل إلى أننا ولدنا كبارا . )

الهجري الصغير الذي أسس جمعية الخطابة هو نفسه الشاب الذي أسس فيما بعد المدرسة الليلية لمكافحة الأمية . و استقبل فيها طلابه معلما و موجها . إلا أن طلابه اكتفوا بالقليل . فلم تمض سوى بضعة اشهر , ولما عرف كل واحد منهم أن يكتب اسمه , حتى فروا من مدرسته و تركوه وحيدا .

انه رجل من هجر . تلك انتصاراته و انكساراته .....يعرفها الجميع . يتحدث بها إلى جلساءه أحيانا . دون ضعة أو زهو .